الصحراء وحركة الارتداد في الرّواية النّسوية

قراءة في رواية "الناجون" لـ: الزهرة رميج

Desert and the Reactionary Movement in the Feminist Novel
Read the Novel "Survivors" by: Zahra RAMEJ

أقطي نوال[1]–Agti Naouel

جامعة بسكرة–الجزائر naouel.naouel.agti@gmail.com

تاريخ الإرسال:01-05-2019 تاريخ القبول:09-07-2019 تاريخ النشر: 31-01-2020

ملخّص: تهدف هذه المقاربة إلى دراسة رواية "الناجون" لـ الزهرة رميج من منظور الحركة الارتدادية التي تمارسها دلالة الصحراء، ولأجل هذه الغاية توزعت الدراسة بين محاور أربعة هي: الصحراء في اللغة (تراسل المتباعدات)، ثم دلالة الصحراء بين إثبات الوجود وسطوة اللامعنى، ومن الجاذبية إلى الجاذبية المضادة، ومن فعل القوة نحو عامل الارتياب، ويسبق هذه المحاور حديث عن المكان، وتتلوها جملة نتائج أهمها:

– إن الأنثى تتبدد في المكان العذري، لتتصل بنفسها وتدرك قوتها وقدرتها في مواجهة اللامتناهي، ثم تسمو فوق تلك الذات لتعانق الإنسان الأعلى.

– يمارس المكان والذات معا حركة ارتدادية مستمرة بين المتناقضات (من الوجود إلى العدم).

– تتفق اللغة ومكان الاتساع في النبوة والالهام والتحرر وتقويض الثابت.

الكلمات المفتاحية: الصحراء، الحركة الارتدادية، الذات، الوجود

Abstract. The aim of this approachis to study the novel "Survivors" by Zahra Ramej from the perspective of the reactionary movement to meaning of the desert. For this purpose, the study was divided in to four axes: First, desert in the language (distant correspondence). Second is the meaning of the desert between the proof of existence and the power of senseless. Thirdis, from gravity to anti gravity.Four this, from the

[1]–المؤلف المرسل: أقطي نوال، الإيميل: naouel.naouel.agti@gmail.com

act of force towards the suspicion factor. These axes precede a presentation about the place. The study reached a number of results, the most important of which:

- The female dissipates in the virgin place, to connect herself and she is realize her strength and ability in the face of the infinite, and then she is rise above that self to embrace the higher human.
- Both place and self practicea constant reactionary movement between contradictions (from existence to nothingness).
- Both language and breadth place are consistent in prophecy, inspiration, liberation, and constant undermining.

Keywords: desert, reactionary movement, self, existence.

–**مقدمة:** يكتســـب المكان أهمية بالغة تنهض من كونه يلازم فكرة الوجود، «فلا وجود خارج المكان والكون مكان مطلق»[1]، لذلك فهو يعبر عن الذات، ونحن نعود إليه من أجل فهمها.

وقد تمثل المكان في الوعي الفلسفي في قول أفلاطون**Platon** إنه: «الحاوي للموجودات المتكثرة ومحل التغير والحركة في العالم المحسوس عالم الظواهر غير الحقيقي»[2]، هذا يعني أنّ وجود المكان يتحدد من خلال المادة، وبقاؤه مرهون بالزمن؛ لأنه يخضع لإيقاعية التحوّل، وهو صورة حسية للظواهر المتغيرة، محدث وغير قار.

من هنا يكون أفلاطون قد تنبه إلى ارتباط المكان بالزمنية، وبذلك سبق ما فصلت فيه النظرية النسبية، لذا رأى أنّ المكان المستقل عن الزمان هو مكان ميت.

أما أرسطو**Aristote** فيبيّن أنّ المكان موجود في كتابه "السماع الطبيعي" «بدليل أنه حيث يوجد جسم، يمكن أن ينتقل عنه، ويشغل محله جسم آخر، ومعنى هذا أن المكان يختلف عن أي شيء يتميز فيه، ثم إن العناصر الطبيعية، يميل بعضها إلى فوق والبعض الآخر إلى تحت، والفوق والتحت ليسا نسبيين فقط إلينا، بل الفوق هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه النار والتحت هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه الأرض، ويميز أرسطو الخصائص التالية للمكان:

1/ المكان هو الحاوي الأوّل 2/المكان ليس جزءا من الشيء3/ وهو مساو للشيء المحوي4/ فيه الأعلى والأسفل».[3]

ندرك أنّ المكان لا يمكن إنكاره، ولا وجود له دون وجود الشيء الذي يشغله ويتحيز فيه، ويمكن إدراكه من خلال الحركة. ويقف على مثنوية العمق والسطحية، وبالتالي يمكن القول إنّه يخضع للأبعاد الفيزيائية (الارتفاع، والعرض، الطول).

وقد نلحظ أن تعريفي أفلاطون وأرسطو وقفا على البعدين الهندسي والفيزيائي للمكان.

ويتفق ابن سينا مع موقف أرسطو من وجود المكان، وعدم نفيه، ثم يذهب إلى تطوير التعريف بالمكان، إذ يراه «السّطح المساوي للسّطح المتمكِّن وهو نهاية الحاوي المماسة لنهاية المحوى»[4]، فلا وجود لجسمين داخل مكان واحد، وهو يقبل المتمكن فيه ويفارقه المتمكن بالحركة.

وعليه يكون المكان عند كل من أرسطو وابن سينا قارا، وقابلا للقسمة إلى جهات كالفوق والتحت، ومتناه تبعا لتناهي الجسم الطبيعي الذي يحل به.

أما الفلاسفة المحدثون فيعرفون المكان بقولهم «وسط مثالي غير متداخل الأجزاء، حاو الأجسام المستقرة فيه محيط بكل امتداد متناه. وهو متجانس الأقسام. متشابه الخواص في جميع الجهات، متصل، وغير محدود».[5]

أضاف هذا التّعريف شرط المثالية والتجانس، ليميّز بين المكان القابل لوجود الأجسام وانتمائها إليه، وبين المكان الذي لا يقبل النفوذ لتداخل الأجسام به، كما ألح من خلال تشابه الخواص على خصوصية الأمكنة، واختلافها بعضها عن بعض ليضيف بعدا آخر للمكان وهو البعد الموضوعي.

ويذهب المتصوفة إلى كون الإنسان «مكانا للوعي يختزل عبر الوعي الأمكنة كلها، ابتداء من الأمكنة الصغرى والأمكنة الكبرى المألوفة وانتهاء بالمكان المطلق»[6]،

وربما تحمل هذه اللازمة مدلول البقاء، فتشبث الذات بالوجود يجعلها تتماهى معه، وتبحث عن الانتماء الذي يشعرها بالراحة.

وقد عد المكان في النصّ الأدبي السّردي عنصرا رئيسا، لا يمكن إغفال دوره، إذ يترجم الرسالة النّفسية للذّات الكاتبة ويحمل خصوصيتها، كما يكشف عن وعي الذات بواقعها، فالمكان «ليس عنصرا زائدا في الرواية بل يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة بل إنه قد يكون في بعض الأحيان الهدف من وجود العمل كله»[7].

ولما كان المكان إنسانا، والإنسان مكانا، فقد عمل السّرد النّسوي على اختزال الأمكنة وتفعيلها، بوصفها آلية جوهرية من آليات السّرد، لاسيما أن المرأة أشدّ ارتباطا بالألفة، وأكثر توقا للاحتضان والاحتواء، إنها حكاية متحركة تسرد إثبات ذاتها بشكل دوري، وتمدّ جسرا للحوار مع الآخر.

ووفق ثابت العادة ذاك، يغدو توجه المرأة إلى المغلق والضيق أمرا مسلما، لكن ما يكسر أفق التوقع هو هدم هذه المسلمة المطروحة للاتصال باللامحدود–وهو ما حدث في رواية "الناجون"–حيث شكلت الصحراء علامة اتساع مدججة بهول المجاهيل والخفاء، وملغمة بتعاليم العراء والكشف.

1. الصحراء في اللغة (تراسل المتباعدات): لا شك أنّ الأديب يسمي الأشياء باللّغة، إنّه «يدفع الموجود لأن يصبح مسمى، وبفعل هذه التسمية لأن يكون ما هو عليه، وبذلك يصبح معروفا بوصفه موجودا، فكل ما هو كائن لا يكون إلا في معبد اللغة»[(8)]، فالذّات تسجّل وجودها باللّغة التي تعدّ منطلق البحث والتحوّل، ففيها تتبدى الأشياء وتُظهر وجودها، من هنا تصبح الكتابة «امتدادا للكيان... وهي بحث عن المعرفة وطريق الخلاص... مأخوذة بكل ما يجعل الإنسان يسمو فوق نفسه»[(9)]، لذا تتصل

الذّات بذلك العالم الحالم، لتبتكر واقعا مغايرا يخضع لبيانها الدستوري الخاص، وبالتالي فهي بحاجة إلى هذه الحركة الدورية باستمرار، لتمارس رجوعها إلى البداية مستمدة قوتها من منبع الانطلاقة الأولى.

ولابد أنّ تلك الحركة الارتدادية تتمثّل بشكل واضح في مكان الفطرة الإنسانية، حيث العودة إلى الفردية وإلى رحم الطبيعة على حدّ تعبير ياسين النصير في قوله: «في فضاء واسع كالصحراء وفي أمكنتها البؤرية لا ينمو إلا الاحساس بالعزلة والفردية، ففي الرواية الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الشخصيات تحاول من خلال وجودها الفردي وعزلتها في الصحراء أن ترتبط بالأرض ارتباطا رحميا أشبه ما يكون الارتباط بالعودة إلى كيفية زمنية– مكانية أي إن الشخصيات انفصلت عن الأم الأولى، ثم حاولت من خلال السرد العودة إلى ذلك الرحم، أعني الطبيعة وهذه العودة بالضرورة عودة سيكولوجية»[10].

وعودة الزهرة رميج من خلال السّرد إلى وطن الصحراء هي عودة سيكولوجية إلى الأنا، تمثّل توقا للعود الأبدي، والاتصال بالزمن الدائري (بالماضي والهوية)، حيث يفنى ضمير الأنا بماهية الوجود، (إلى حد التطابق)، بما يسمى حلولا وجوديا يرنو إلى التعلّق بالأبدية والنّقاء.

هنا تماثل الصحراء اللّغة فيصبح كلاهما واحد، إنّهما مقام النبوة ومعبد الإلهام والتأمل، وفضاء التحرّر والبعث، وسبيل الطواف حول بيت الحقيقة، وإن كانت اللّغة لا تسرد الواقع كما هو، فالصحراء هي الواقع المتحوّل الذي لا يعرف الثبات.

تقول السّاردة: **(يا لشاعرية هذا الوصف! معك حق أن تغرمي بالصحراء! يا لسحر اللغة! يا لقدرتها الجبارة على تجميل الأشياء!**

– هل تعني أن الصحراء في الواقع، ليست هي الصحراء في اللغة؟

– أنا ابن الصحراء، لكنني لم أشعر يوما بهذا الإحساس! إنها نظرة أبناء الثلج لأبناء الرمل! نظرة البرد القارس للحر اللافح!...إنها... نظرة النقيض لنقيضه؟

– وهل النقيض يبحث عن نقيضه؟!

– هكذا تبدو لي الأمور! ألسنا نموذجا مقنعا لذلك؟ أنا من الشرق وأنت من الغرب، أنا أسود وأنت بيضاء أنا خشن وأنت ناعمة، أنا طويل وأنت قصيرة أنا قوي البنية وأنت هشة كقارورة عطر خالص!)[11]

إنّ الكتابة هي الوطن البديل الذي تبدأ فيه رحلة التحوّل، إذ تحاول الذّات من خلاله تجاوز العزلة بلغة الاستعلاء، فتتقطع الصلة بينها وبين الواقع، إنّها فلسفة خاصة للوجود نابعة من طرح البديل.

وفي الكتابة تبحث الذّات عن الجزء المتمم لها والجانب الغائب منها، لذا فحقل الكتابة هو حقل لانجذاب المتناقضات، حيث «يبحث الإنسان دوما عن الحقيقة عن عالم لا يناقض نفسه لا يخدع ولا يتغير عن عالم حقيقة لا معاناة فيه، فالتناقض والوهم والتغيير هي أسباب المعاناة!»[12].

معنى هذا أن فلسفة هجرة النقيض نحو نقيضه تمحو معالم التغيير والاندثار في هذا العالم، وتقضي على أسباب معاناة الذّات في الشعور بالعدم.

واجتماع الشرق بالغرب هو اجتماع مركبين لصناعة ذات واحدة، يقول كيركغارد Kierkegaard: «الإنسان مركب من المتناهي واللامتناهي، من النفس والجسد، من الزماني والأزلي، من الضرورة والامكان، باختصار الإنسان مركب، والمركب علاقة بين عاملين والإنسان بهذا المعنى ليس ذاتا بعد»[13].

والذّات التي تبحث عن ذاتها تجد مستقرا لها في موطن الصحراء، لذا يقول: «الصحراء تاريخي ووطني وقلبي، ونفسي الغريبة، ومعيشتي الجرداء الملتهبة وأخيرا حكايتي، هذه الصحراء الضامئة الملأى بالأسرار المستعرة المنتظرة الحزينة على الوجود!»[14]، وبالتالي تتراقص على صفحة هذا الفضاء الرحب مجموعة من الثنائيات الضدية، فتجتمع الواحة بالرمل، والخصب بالقحط، والثراء بالفقر، والظمأ بالارتواء، إنّه المكان الذي يشهد على وجود ذاتي، فيصبح متواصلا مع الكيان البشري؛ لأنه «فكرة حسية، نقدر أن نعاينه ونتثبت منه، بينما الزمان مقولة تجريدية خادعة ومضللة، إننا لا نستطيع أن نلمسه ونراه مع أنه الهواء الذي نستنشقه، هو التاريخ...»[15]، لذا فالمكان بشكل عام والصحراء بصفة خاصة، هي المساحة التي تنبثق من داخلها فلسفة التحرر، والفكاك من سطوة الإمبراطورية الزمنية القاهرة.

وحقيقة هذا الزمن تزيد الإنسان خشية وتوثق لقالب الانفصال، غير أنّ إرادة القوة تمكن الذّات من ربط علاقات بين الفواصل الزمنية المختلفة، وذلك ما ينتج لنا الأبدي الذي يحل محل الزمن التّقليدي في وطن الصحراء.

وفي موطن الاتساع ذاك، تسمو الذّات نحو عوالم المتخيل، لتعود إلى الماضي مشوشة خطية الزمن، وبذلك تعيش دلالة المكان الصحراوي حركة ارتدادية، تسبح بين أطراف الأقطاب، من معنى الوجود إلى اللامعنى، ومن الجاذبية إلى جاذبية أخرى مضادة، ومن القوة إلى الارتياب.

2. دلالة الصحراء بين إثبات الوجود وسطوة اللا معنى: إنّ حوار الأبدي يحتم خروجا إلى التيه، حيث يتمّ العبور الدائم والسفر اللانهائي، وهي متاهة التحرّر التي تتوحد الذات فيها بالفراغ، وتتبدد متلاشية لتصبح جزءا من الوجود.

هذا يفضي إلى أنّ الصحراء هي ذلك« المكان الوحيد الذي يستطيع أن يروض العقل، ويقمع روح الطلب، ويحد من طغيان الإرادة؛ إرادة الحرية، إرادة الحياة، علّ الخفاء

يقدر أن يحقق الأعجوبة، ويشبع نهم الشقي الذي استبدل التسليم بشقاء العقل، وقايض هناء الفردوس بجحيم المعرفة»[16]، وعليه تمتثل الصحراء أفقا للطهارة والبساطة، تنتشل الذات من القلق والشقاء إلى الراحة والهناء، لتكون رمزا للتصوّف، يعلي من شأن الكيان البشري، ويرفعه درجات عن جحيم المادة والتشيؤ إنها «عالم روحاني لا نعبره دون الخروج منه وكلنا رقي وثراء»[17].

تقول السّاردة مستندة إلى نظرة أندريه جيد**André Gide** للصحراء:

(أي شيء لا تزال تطمح إليه أيها القلب الذي لا تنتهي أحلامه... أيها القلب الذي لا يكل أبدا؟ في هذه الأيام المفرطة الحرارة، أحلم بالضرب في متاهات الصحراء كما البدو الرحل. آه! لو أمكنني المكوث هنا، والتحليق هناك! لو أمكنني أن أتبخر في الهواء!... أن أتحرر من نفسي!.. أن تهب الريح الصبا؟ حيث أكون قد تحللت!...) [18]

هذا يعني أنّ الفرد لا يولد ذاتا، ولكنه يصبح كذلك، إنّه مركب يصنع نفسه بنفسه من عوامل موجودة، فإنّ نجح في ذلك فقد حقّق التوازن، وإن حدث العكس حل اليأس والاضطراب.

وهو الأمر الذي جعل "كيركغارد" ينتقل من الوجود العام إلى الوجود الفردي في قوله: « إن أكثر ما يثير اهتمامي أن أجد حقيقة، ولكن بالنسبة إلى نفسي أنا، أن أجد الفكرة التي من أجلها أريد أن أحيا وأموت»[19]، وفكرة "أندريه جيد" حينما أراد أن يتحرر من نفسه وينحل في الهواء وفي رمال الصحراء، تتمثل في محاولة الانفلات من سطوة الذات، من هنا لا تتحقق حركة الهجرة من التمركز حول الأنا إلا بالتناهي، و«كل حركة من حركات اللامتناهي تتم بالعاطفة»[20]، وبالتالي

فالحركة نحو اللامتناهي هي حركة ارتدادية، تتقلص وتتمدد وفق منحنى الارتياب العاطفي، وبمدى تفوق الذّات عن انكماشها عبر الخروج من قوقعة الفعلي نحو التّفاعل.

ويصبح التوحد مع المكان وجها للاحتماء بصلابته، من أجل الاحتقان بترياق المقاومة، ويبدو هذا جزءا من تواصل الذات مع محيطها، تستعيد به خصوبةً الدواخل، وتسعف جذبا مترامیا ومتسعا ضمن مجاهيل المدّ النّفسي الصحراوي، حينها تسافر الأفعال إلى الانتفاضة-(تحللت، أتبخر أتحرر)- ملبية دعوة التحول والانبعاث، ومنها ينشأ التجمع والثبات.

ويغدو فضاء الرمال اللاهثة متوهجا بفوانيس الحياة، تسترد فيه الذّات قواها، وتستجمع كيانها، لتزداد رفعة وعلوا، حينها يتحدث النص بجمالية مكان تنتفض أشياءه.

(عاد ناصر يحمل أقراص مدمجة أضاء جهاز التلفزيون الذي ظل مظلما طيلة السهرة ارتسم على صفحته رأس جمل يتحرك على إيقاع دقات متتالية: طق...طق...طق...أشرقت الشمس ناشرة أشعتها الحمراء فوق الصحراء الممتدة امتداد الشاشة العريضة... تعاقبت الصور منفردة أحيانا، متداخلة أحيانا أخرى: امرأة صحراوية تلوح بيديها المزركشين بالحناء... جمال تجري في الأفق...خيام... بدو يشربون كؤوس الشاي الصحراوي المعتق...)[21]

يتدثر المكتوب ببردة البصري، فيتصل الصوت بالصورة، والمرئي بالمسموع (الكلمة والصورة)، لينعتق النصّ من جبرية المسلمات نحو تبني الاحتمال الفرضي، الذي ينشئ النص المنبثق من المتباعدات، وهو النصّ الذي قهر قانون الثابت وحطم دستور المسبق ليؤمن بما هو مختلف.

والمغاير هنا هو صورة الحياة التي سدت الفراغ الصارم، واللامبالي، والضامئ **(بدو يشربون كؤوس الشاي الصحراوي المعتق)**، بل نشرت بساطا من الجمال والحبّ والفرح عبر رمزية الحناء والمرأة **(امرأة صحراوية تلوح بيديها المزركشين بالحناء)**.

كما أماتت السكون في الخلاء، إذ حرّرت الصّوت من عمق الصّمت، ذلك أنّ «الصرير اللامتناهي لحبات الرمل التي تدحرج تحت تأثير الريح بلا انقطاع على بعضها، حيث تعمل قعور الكثبان كحاويات صدى، وفي ذلك الجو الكامل الصفاء يتضخم الصوت ويتضاعف وينتشر بعيدا جدا»[22].

ينضاف إلى كل ذلك ما أومأت به الخيمة من دلالة، فهي الكتلة الناتئة فوق أفق الصحراء التي تقبع بين نيران الحر، إنها جنة وطبيعة ومعلق ينزع نحو التحرّر.

ويتحقّق الوجود أيضا عبر محو منمنمات العدم، حينما تسمو الموجودات بصور التّشخيص إلى مصاف العاقل عبر أسلوب النّداء (أيها النخل، أيتها الريح)، أو استخدام الصفات (النخل الهامس/ أشجار اللوز الضاجة)، مما يجعل الذّات والموضوع واحدا.

تقول السّاردة: **(أيها النخل الهامس للريح! يا أشجار اللوز الضاجة بأزيز النخل أيتها الريح الحارقة! يا مذاق العسل في الهواء! آه، كم كان جميلا منظر القوافل وهي تمر بتوكورت، قبيل الغروب!..)** [23]

تشتبك الصور الحسية–(الذوق/ مذاق العسل، البصر/ منظر القوافل قبيل الغروب، والسمع النخل الهامس، اللمس/ الريح الحارقة)– وتمتزج مع المعنويات؛ لتؤمن خلاص الذّات وانعتاقها من دونية الواقع المقيّد بأغلال المادة، متحرّرة باغتسالها إلى فضاء مثالي نوراني، أكثر نقاء واتساعا، تنعم فيه الذّات بالوجود المفتقد في عالم الشقاء، وترسو فيه الروح على ضفاف جزر الطمأنينة.

إنّ اجتماع هذه الصور الحسية هو وسيلة للحلم، الذي يترجم تلك اللحظات الشعورية الباطنية، ويكشف سعي الذّات للاندفاع إلى مواجهة الحقيقة، إنّه يؤكّد على خصوصية الصورة ويثبت جمالها المميّز.

كل ذلك هو خلق لفوضى الانسجام التي اعتادها القارئ، من أجل إثارة ذهنه وتنبيه فكره إلى سحر هذا الوجود المختلف، الذي يحيكه السّرد من خيوط المتخيّل.

والواضح أنّ حقيقة إثبات الوجود تتحقق بالتأمل، الذي يتصل بالتحرّر المطلق من هاجس الفناء، تقول السّاردة: **(أندريه جيد كان يعيش في بلد ديمقراطي يضمن له حقوقه ويوفر له أسباب الراحة لذلك وجد نفسه يحن إلى العوالم البدائية... أما نحن أبناء الصحراء فلم تتطور حياتنا بالشكل الذي يدفعنا إلى الحنين إلى الماضي شعرية التأمل لها شروطها...لا تمنح نفسها إلا لمن تحرر كلية من ربقة الصراع من أجل البقاء...إلا للذي توفرت له شروط الحياة الكريمة...)**[24]

لا بد للذّات من تلك التأملات الشاردة، لتوقع راحة الكينونة وتثبت الحضور، ولا يتأتى لها ذلك إلا حين يتم «ابتلاع العالم الواقع بالعالم التخيلي»[25]، حيث تجعلنا المخيلة نخلق ما نرى.

ويبدو أنّ الخوض في المتخيل وليد العاطفة، التي تجعل الذات موضوعا لنفسها، فتكتمل معرفتها بذاتها، وهو ما لا يحدث إلا بالتحرّر الكلي من سطوة الفعلى.

فإن ظلت الذّات أسيرة هواجسها المتعدّدة، فإنّ العدم يفند حضورها ويلتهم وجودها، وهنا تبرز سلطة اللا معنى، تقول السّاردة: **(الإنسان في الصحراء ليس كغيره في أماكن أخرى، إنه في مواجهة دائمة ومباشرة مع الموت، في صراع يعرف أنه غير متكافئ، لكنه يقبل بالتحدي.)**[26]

لعل لذّة المغامرة في البحث عن أسرار الأمكنة أشد تأثيرا من هاجس الفناء الذي يهدّد الذّات، لاسيما وأنّها سوف تلج عالما موازيا هو عالم الامتداد المجهول، الذي

ينتشل ذاتا أنهكتها السنون خارج قذارة الحياة، إذ يصبح الغياب المأوى الذي تلوذ إليه من حصار منعطفات الزمن، لذا تندفع للمجابهة مدرعة بالعزيمة.

إنّها جاذبية اجتياح الغامض حيث، تلامس الذات الخفي من الأمكنة كما لامست الظاهر، وتنبش تحت لفافات المستور علها تبلغ نشوة الكشف.

3. دلالة الصحراء من الجاذبية إلى الجاذبية المضادة: تعدّ الصحراء وطن الجاذبية وأرض العراء، لكنّها لا تمارس غواية، بقدر ما تفعل مبدأ الانسجام والتناغم بين الموجودات، فالعراء «ليس إغواء لاستدراج السماء، ولكن بتعبير آخر من تعابير الوفاء. ذلك أن علاقة المكان الذي أخفى السر في بيته لمكان آمنه على السر ليست علاقة قران حميم فحسب، ولكنها علاقة عشق خالد، فيصير التعري شرطا من شروط الالتحام الكلي، الالتحام المطلق الذي يوحد برباط مباشر الجرم العريان بالمكان المقدس الذي حوى كل مكان».[27]

وعلى هذا الأساس تصبح الوحدة الشعار المنادى به لانسجام الكون وتواصله، ويضحي التكامل الهدف الذي تنشده حقول الوجود باختلافها، لتمنح للإنسان وصية مفادها: التوثيق للحوار والجمع ونبذ الصراع، ثم إن لهجات القبح تسمو من العراء، ومن حمم الغواية والدناءة إلى مراتب لغات البراءة والنبل.

وتبرز جاذبية الصحراء في نص "الناجون" من اتصالها بالذّات الأنثوية، وتبنيها لطاقة الالتحام والتوحد، تقول السّاردة:

(الصحراء امرأة طاغية لا تحب إلا الرجال الأكثر طغيانا منها. إنها حادة الطبع، متقلبة الأهواء، متطرفة المزاج... تصل بالأشياء دوما إلى حدودها القصوى...

حرارتها جهنمية... بردها يخترق الجسد حتى النخاع... عواصفها قاتلة... معالمها خادعة... أرضها متحركة على الدوام)[28]

تتمثل الصحراء كائنا جامحا ينبض بالحياة، فتنأى عن الصورة الجغرافية المألوفة، بمحاذاة وجود جمالي ساحر يمنح المكان سطوته، حيث يمارس فتنة التطرف والاختلاف، وغواية التيه والدهشة، ومتعة الحركة المستمرة.

من هنا ينقاد الآخر لتواصل تحفزه بواطن الرّغبة في قهر التجبر والاستعلاء، وشهوة المغامرة في اجتياح عوالم الخداع والزيف، ولذّة حركة الامتداد اللانهائي.

إنّ عناق الصحراء لأنوثة جامحة يبعث الحياة والتمرّد في فضاء الصّمت، ويمنح المكان حيوية تهبه جاذبية أخرى، هي جاذبية الاحتماء بالأمومي، تقول السّاردة: **(تشعر آنذاك وكأنه في صحراء قاحلة...تائه بين كثبان رمالها المتحركة...لا يعرف متى تنقض عليه لتغرقه في أعماقها..لا ليس كمن في الصحراء... فالصحراء أصله وجذره... ولا يمكن للجذر أن يشعر بالغربة في تربته سواء كانت رملا، أم حجرا صلدا أم ترابا ناعما)**[29].

ضمن الجذور العرقية تقبع الأحياز المكانية، فتمتثل صفاتها للهوية الذّاتية، ذلك أن الذّات التي تنفذ إلى الأعماق تتوحد بالمكان لتسدّ خواء الفراغ.

فجاذبية المكان هنا هي جاذبية التجذر التي تغذي الكائن بوجوده ليواجه عزلته وتيهه، إنّها المواجهة التي تجتمع فيها المتماثلات والمعادلة التي تتجانس فيها الحدود (يجابه الفراغ العزلة ويقاوم التيه الاغتراب)، فتسفر النتيجة عن تكافئ لا يمكن أن يؤول إلى الانمحاء والهدم.

غير أن صور الجاذبية تلك لا تمحو حتمية الصّراع الذي تعيشه الذّات في الصحراء، حيث ترتد الجاذبية إلى جاذبية مضادة حينما يصبح المكان الملاذ الحميمي

عدوا متربصا بالذّات تقول السّاردة": **(ما عدا ذلك، تصبح الصحراء عدوا يجب الاستعداد الدائم لمواجهته...)**[30]

يمارس المكان سطوته على الذّات، ليلقي بها في قبو الفناء، فيكون العراء اختراقا للوجود الإنساني، حيث تبرز عبره لغات الإقصاء، غير أنّ الذّات من خلال حذرها الدائم وفطنتها الكلية وتأهبها المطلق، تلقن نفسها أبجدية النّضال والمقاومة لإدراك التحول **(استعداد دائم للمواجهة)**، فهل تنتصر الذّات على ارتياب الهفوة والغفوة إن كانت تتحصن بدستور فضاء التحدي؟

الصحراء من فعل القوة نحو عامل الارتياب: لقد انعكست متناقضات الحياة العضوية على أرضية الحياة الفكرية للإنسان، مما جعل الذّات تشعر بالارتياب، لتعيش صراعا بين فعلين: أحدهما إيجابي، والآخر سلبي، هل تتشبث بقناعة المقاومة والتحدي، أم تنكرها وتخضع لفعل الاستسلام؟

هكذا تتحوّل المواجع المرهقة التي تصاحب الذّات في أماكن العزلة إلى طاقة محفزة تتيح للذّات إعادة قراءة بواطنها، حيث تستطيع النّفس مواجهة نفسها والاختلاء بها، حتى تتمكن من معرفة ذاتها ومعرفة الآخر.

إنّ خصوصية الاتساع والعمق والانبساط التي يتميّز بها بحر الرمال، تسوق كثيرا من الخوف والضياع والقلق، الذي يعرض مساحة المجهول، ويوضح إشكالية العمق والجوف المتصلين بالسّطح، ويطرح صور المنفى والانعزال، لكنّها في الآن نفسه تُنشئ منحى توزيعيا للحركة، حيث يعدّ «الاتساع في المكان، تأكيدا على حرية الفرد، أو تأكيدا على الخروج من الذات إلى الآخر»[31]، فالفضاء المتسع يجعل الذّات تسقط

في فجواته الكبيرة، التي لا تملؤها سوى رحلة الانتقال المستمر، لكشف الأسرار ومطاردة الحقائق.

تقول السّاردة: **(هل هو طبع رجل الصحراء الذي ورث عن أجداده الموغلين في التاريخ شدة الحذر وقوة التحكم في الذات؟ هل هي الطبيعة التي تفرض نفسها على سلوك أبنائها؟ يتساءل هذا السؤال عندما يرى أن الذين يتورطون بسرعة في العلاقات معظمهم من أبناء السهول... يندفع الواحد منهم كما النهر في مجراه ابن السهول لا يعرف معنى الخطر كل شيء أمامه واضح المعالم... ممتد حتى الأفق البعيد... عكس الصحراء تماما، حيث الخطر يكمن ليس على بعد خطوة منك فحسب، بل قد يكون تحت قدميك قد يكون الخطر وحشا يتربص بكى خلف الكثبان أو مجرد أفعى تختفي داخل الرمال... لذلك بدون شك يولد رجل الصحراء وهو يحمل في داخله بوادر الشك والحذر الشديد.)**[32]

في حوار يرتد فيه الصّوت إلى صداه تروي الذّات قصة تأثير الطبيعة التي تفرض نفسها على سلوك الإنسان، حيث يولّد الارتياب إذا كان حيطة قوة في ذات لا تؤمن بالمسلمات، وإنما تحتكم لمبدأ الشكّ، فتجابه به ثابت اليقين (ابن الصحراء/ **شدة الحذر وقوة التحكم في الذات)**، بينما تنجب القوّة إذا أصبحت اندفاعا تهورا وتوترا؛ لأنّ الذّات إن رضخت لقانون الثابت سجنت نفسها بين فكي اللاوجود (أبناء السهول/**الذين يتورطون بسرعة)** لكن يجب التنبيه إلى أن الحيطة إذا تجاوزت ذروتها ترتد خوفا وقلقا ورهبة، في حين تعادل القوّة إذا تبنت أساس التروي الحكمة.

وذات المرأة تماثل مكان الصحراء لأنّها حركة بين الهدوء والقلق، بل الحياة كلّها زوابع ورياح عاصفة، والذات السيزيفية قد تعودت ملاحقة جلادها الأبدي.

تقول الزهرة رميج:

«لم تكن تتخيل أن تلك القبلة ستفتح لها عالما آخر من القبل الشرسة المضمخة بعطر الصحراء ولهيب شمسها الحارقة لم تكن تتخيل أن مجرد رغبة في معرفة نوع آخر من الرجال... بل في معرفة رجل الصحراء تحديدا سيحول مجرى حياتها تماما لم تكن تتصور أن رياح الصحراء وزوابعها الرملية ستعصف بها لدرجة الوقوف في وجه أهلها للدفاع عن صحة اختيارها (33)

إنّ التحام الذّات بالآخر هو امتزاج لمكانين أحدهما ترابي والأخر رملي واجتماع للاحتواء بالامتداد واحتكاك للنعومة بالصلابة وهو ما يحيل على هجرة الذّات باتجاه الكمال، حيث تصبح القوّة ارتيابا والارتياب قوة، وهي الحركة الارتدادية التي تمارسها الذّات والمكان معا في بيان الوصل بين الواقع والمتخيّل.

نتائج البحث:

- تنقل التّجربة السّردية الصحراء، من البعد الطبيعي والجغرافي المكسو بالعراء إلى بؤرة تاريخية تتلاءم فيها الأزمنة قديمها ومعاصرها، لتعيد إنتاج الذّات من خلال إنعاش الذاكرة، التي تقمع حصار الوحدة الراهنة؛ لتتصل الذّات بجذورها منفلتة من جل هواجس العزلة والخوف. وحينها توفر الذّات وسائلها لتقاوم وحشة المكان.

- تصبح الصحراء لغة فكرية مطعمة بآليات التأمّل، الباحث عن تفسير لذلك الامتلاء الكوني من خلال الجمع بينها وبين المكان الروحي، ويمثّل طرد المكبوت للخروج من متاهة التيه الداخلي، والامتداد النّفسي الانفعالي إلى معالم النّور والتحرّر.

- يؤثث المتخيّل السّردي المكان الصحراء، بأشيائه ليصلب وحشته، ويمحو هواجس المجهول، ويمنح للمكان هويته، فيتحوّل من عالم مفقود تتلقفه الموت إلى عالم موجود مفعم بالحياة والدين والثقافة، حينها يتمكن من ممارسة جمالية الانتماء.

- إنّ البحث عن الوحدة والاستقامة والحضور والكمال يجعل الأنثى ترتبط بذلك الفراغ الأفقي، بوصفه الآخر المحتضن لها والمتمم لفجوة الغياب بدواخلها.
- تمارس الذّات حلولها الوجودي ضمن عذرية الاتساع وتستغني عن حضورها المادي متشبثة بالروحي، فالمرأة العذراء هي مكان فطري لا يزال يعيش توازنا داخليا.
- يجنح المكان نحو دوائر دلالية بعيدة عن المألوف، إذ يجلي الصّمت والسكون المتصل به، ليصبح ناطقا فاعلا، يتواصل مع النخل في محادثة مطولة باحثا عن دوافع اجتماع المتناقضات (المقدس بالعراء) (الحياة بالموت).
- إنّ الالتحام بالمكان يحرّر الذّات من عزلتها، ويحقق اتصالها بالأعماق، عندئذ تصبح الذّات الحياة التي تواجه الموت، وعليه يحدث ميلادها، فتتعلق بالحياة، وتتجاوز الواقع باسترجاعها لسلطة الكيان والوجود.

- **الإحالات**

---

(1)-صلاح صالح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997، ص11.

(2)-علي عبد المعطي: قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط2، 1984، ص124.

(3) -عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ج 2، ص 461.

(4) -حسن مجيد العبيدي: نظرية المكان عند ابن سينا، مراجعة وتقديم عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة للطباعة والنشر، العراق، ط1، 1987،ص 121.نقلا عن عبد الأمير الأعسم: الحدود، المصطلح الفلسفي عند العرب، (تحت الطبع)، بغداد، 1985.

(5) -جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ج 2، ط1982،1، ص 412.

(6)-المرجع نفسه، ص12.

(7) -حسين بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، دط،1990، ص 33.

(8) -مارتن هايدغر: إنشاد المنادي، قراءة في شعر هولدرلن وتراكل، تر بسام حجار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1994، ص 62.

(9) -أدونيس علي أحمد سعيد: الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص 180 _ 181.

(10)-إبراهيم الكوني: واوي الصغرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997، صفحة الغلاف نقلا عن ياسين النصير: نزيف الحجر دراما الصحراء الذاتية.

(11)- الزهرة رميج: رواية الناجون، فضاءات للنشر والتوزيع، ط2012،1، ص40.

(12)-فريدريك نيتشه: إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، تر محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2011،ص 220.

(13)-إمام عبد الفتاح إمام: كيركجور رائد الوجودية،دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1976، ج 2، ص 65.

(14)-علي شريعتي: الصحراء، تر حسن السراف، مراجعة حسن ناظم، مكتبة مؤمن قريش، بيروت، ط2، 2017، ص 34.

(15)-أسماء شاهين: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار فارس للنشر والتوزيع، بيروت والأردن، ط2001،1،ص،126.

(16) –المرجع نفسه، ص 269.

(17)-نقلا عن فريدة سلال: الصحراء مملكة الصمت، دار القصبة، الجزائر، 2003، ص13.

(18)-الرواية، ص 40.

(19)-سارتر وآخرون: معنى الوجودية، دراسة توضيحية، مستقاة من أعلام الفلسفة الوجودية، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت،(دت)، ص 19.

(20)-سرن كيركجور: خوف ورعدة، تر فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1984، ص 58.

(21)- الرواية، ص 391.

(22)- نقلا عن فريدة سلال: الصحراء مملكة الصمت، ص48.

(23)-الرواية، ص 40.

(24)-الرواية، ص 41.

(25)-غاستون باشلار: شاعرية أحلام اليقظة، علم شاعريات التأملات الشاردة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ص 16.

(26)-الرواية، ص 41.

(27)- نقلا عن: وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر وبيروت، ط1، 2008،ص270.

(28)-الرواية، ص41.

(29) -الرواية، ص 75.

(30) -الرواية، ص41.

(31)-مجموعة من المؤلفين: جماليات المكان، عيون المقالات، الدار البيضاء، ط2، 1988، جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور، مدحت الجيار، ص 32.

(32) -الرواية، ص97-98.

(33) -الرواية، ص 83.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم الكوني: واوي الصغرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997.

2- أدونيس علي أحمد سعيد: الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

3- أسماء شاهين: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار فارس للنشر والتوزيع، بيروت والأردن، ط2001،1.

4- إمام عبد الفتاح إمام: كيركجوقار رائد الوجودية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1976، ج 2.

5- جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ج 2، ط1982،1.

6- حسن مجيد العبيدي: نظرية المكان عند ابن سينا، مراجعة وتقديم عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة للطباعة والنشر، العراق، 1985.

7- حسين بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، دط،1990.

8- الزهرة رميج: رواية الناجون، فضاءات للنشر والتوزيع، ط2012،1.
9- سارتر وآخرون: معنى الوجودية، دراسة توضيحية، مستقاة من أعلام الفلسفة الوجودية، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت،(دت).
10-سرن كيركجور: خوف ورعدة، تر فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1984.
11-صلاح صالح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997.
12-عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ج 2.
13-علي شريعتي: الصحراء، تر حسن السراف، مراجعة حسن ناظم، مكتبة مؤمن قريش، بيروت، ط2، 2017.
14-علي عبد المعطي: قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط2، 1984.
15-غاستون باشلار: شاعرية أحلام اليقظة، علم شاعريات التأملات الشاردة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991.
16-فريدة سلال: الصحراء مملكة الصمت، دار القصبة، الجزائر، 2003.
17-فريدريك نيتشه: إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، تر محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2011
18-مارتن هايدغر: إنشاد المنادي، قراءة في شعر هولدرلن وتراكل، تر بسام حجار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1994.
19-مجموعة من المؤلفين: جماليات المكان، الدار البيضاء، ط2، 1988.
20-وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر وبيروت، ط1، 2008.